

إلى إخواننا الأزهريين :

بمناسبة حادث الشيخ أبي العيون

للأستاذ على الطنطاوى

ما عرفنا علماء الأزهر إلا ملوكا ، لا أمر فوق أمرهم ، ولا كلمة بعد كلمتهم ، إذا قال واحد منهم لبنت الأمة ، وإذا دعا هب الشعب ، وإذا أنكر على الحكومة منكرًا أزالته الحكومة النكر ، وإذا أمرها بمعروف أطاعت بالمعروف ، فكانوا هم السادة وهم القادة ، وهم أولو الأمر : هذى حكومة مصطفى فهمى باشا تستجيب سنة ١٨٩٩ لرغبة الإنكليز فى إضفاء القضاء الشرعى ، فتضع مشروعها المشهور ؛ لتعديل اللامحة الشرعية وضم اثنين من أعضاء الاستئناف الأهلى إلى المحكمة الشرعية العليا ، و يبلغ من ثقتها بقوتها ، وتأييد مجلس الشورى لها أن لا تنال باحتجاج الحكومة المأثمة على المشروع ، وتعرضه على المجلس . (وكان

(وعظمهم وقل لهم فى أنفسهم قولاً بليغاً) ويقول (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) . وبما أن هذه الدعوة هى رسالة الوعظ فحبذا لو ذلت سبل الانتقال لحضرات الوعاظ ليتمكنوا من كثرة التردد على البلاد التى تقع فى دائرة عملهم وليتيسر لهم أداء رسالتهم على الوجه الأكمل . وحبذا لو عنى كذلك خطباء المساجد بمعالجة المواد السيئة والمنكرات الشائنة والجرائم المنتشرة فى دائرة عملهم بما يلائم روح العصر وتطورات الزمن بعبارة سهلة مفهومة لعامة الشعب بالحث على التمسك بالدين وغرس صفات الرفق بالضعيف وإغاثة الملهوف ونصرة المظلوم والتحذير من الكذب وشهادة الزور والترغيب فى أداء الشهادة والصدق وما إلى ذلك من الفضائل . والمأمول أن يتم على أيديهم جميعاً تحقيق رسالتهم على أكمل وجه فيساعدون على استتباب الأمن وإسماعاد البشر .

(البقية فى العدد القادم)

على ملى

مدير جرجا

من أعضائه الشيخ حسونة النواوى ، الذى جمعت له مشيخة الأزهر وفتوى الديار المصرية) فيقول كلمة موجزة فى إنكار المشروع ، وينسحب من المجلس ويتبعه القاضى التركى ، فتكون هذه الكلمة كافية لقتل المشروع ، فبردة المجلس كله ، ونحاول الحكومة إنفاذه على رغمه فلا تجد عضواً استثنافياً واحداً يقبل الانضمام إلى المحكمة العليا ، (عرضت ذلك على الشيخ محمد عبده وكان من أعضاء الاستئناف الأهلى وسعد زغلول وأحمد عفيفى ويوسف شوق ويحيى إبراهيم . فأبوا جميعاً) وتمشى كلمة الشيخ فى الناس مشى النار فى يابس الحطب ، فتهب الأمة كلها تؤيده حتى ترضى الحكومة بالمزعة وتسترد مشروعها^(١) .

ولم يكونوا يخشون فى الحق لومة لائم ، ولا يخافون غضبة ملك جبار : هذا حسين باشا الجزائولى ، يصل مصر فيفر منه أمراؤها إلى الوجه القبلى ، فيأخذ أموالهم كلها ولا يرضيه فى عتوه وجبروته أن يستولى على عروضهم حتى يسطو على أعراضهم ، فيقبض على نساءهم وأولادهم ، ويسوقهم إلى السوق ليبيعهم زاعماً أنهم أرقاء لبيت المال ، وكانت الأحكام عرفية ، وسيوف الظلم مصانة ، ولواء البنى مرفوعاً ، ولكن ذلك لم يمنع علماء الأزهر من إنكار هذا المنكر ، ولم يرهبوا بطش الباشا وهم يروون أن أفضل الشهداء رجل قال كلمة حق عند إمام جائر فقتله بها ، فمضوا إليه وتكلم الشيخ محمد أبو الأنوار فقال له : « أنت أنيت إلى هذه البلدة وأرسلت السلطان لإقامة العدل ورفع الظلم كما تقول ، أوليبيع الأحرار وأمهات الأولاد وهتك الحرم ؟ » فقال : « هؤلاء أرقاء لبيت المال » . قال : « هذا لا يجوز ولم يقل به أحد » فغضب أشد الغضب وطلب كاتب ديوانه ، وقال : « اكتب أسماء هؤلاء وأخبر السلطان بممارستهم لأوامره » فقال له الشيخ محمود بنوفرى : « اكتب ما تريد بل نحن نكتب أسماءنا بمخطننا^(٢) » ، وكانت النصرة لهم عليه ، فأحقوا الحق وأبطلوا الباطل ، ووضع الله فى قلبه هيبتهم ، لأن من خاف الله خافه كل شيء . فكانوا بذلك (أجل من الملوك جلالة^(٣)) ،

(١) عن كتاب الأستاذ محمد فرج السنورى .

(٢) اللغة فى الجبروت ٣ - ٢٠١

(٣) شوق .

وكانت إشارتهم للحكام أمراً ، وطاعتهم عليهم فرضاً ، حدث الشيخ محمد سليمان^(١) أن أباه قدم لطلب العلم في الأزهر ، وأخيراً أيام الشيخ إبراهيم البيجوري ، فشكا إليه ظلم تلك الأيام ، وما كان فيها من السخرة والمونة فكتب له ورقة بمساحة إصبعين هذا نص ما كان فيها : « ولدنا مدير الدقهلية . رافقه من طلبة العلم يجب إكرامه . خادم العلم والفقراء . الخاتم (إبراهيم البيجوري) » فدفعها إلى المدير ، فقبلها ووضعها على رأسه ، ودفعت عنه هذه الورقة كل مظلمة ، وأنا لله كل مكرمة ، ورفعت قدره عند المدير وعند الناس .

وكان الشيخ الأزهرى موقراً في الجامع وفي البيت وفي السوق ، مبعجلاً عند الطلبة والعامة والحكام ، وكان أقصى أمل الطالب أن يخدم الشيخ وأن يحمل له نعله ، وإذا سبّه عدّ سبه إكراماً ، وتحمله مسروراً ، ورآه من أسباب الفتوح .

وكان الطالب الأزهرى المجاور ، يذهب إلى بلده في العيد أو في الإجازة ، فيقبل البلد كله عليه يقبل يده ، ويتبرك به ، ويشتم فيه عقب الأزهر ، ويكون المرجع لأهله في الجليل من شؤونهم والخفير ، ويكون قعيمهم والحاكم بينهم ، لا مرد لحكمه ولا اعتراض عليه ، لأنه يحكم بشرع الله ، ويبين حكمه في فتواه هذا ما عرفناه . فما الذي جرى حتى تبدلت الحال ، ووقع

حادث الشيخ أبي الميوني ؟

ما الذي نزع هيبة المشايخ من القلوب وأزله من مكانهم عند الحكم ؟

أقول ؟ أنتم أيها الأزهريون فلتم هذا كله ! أنتم تنكبتم سبيل أسلافكم ، فإلى الشيخ اليوم شيخ مسلّك ولكنه موظف محاضر ، وما التلميذ مرید طيع ، ولكنه على الغائب مشاغب ، وما يطلب علماً ولكن يبتغي شهادة . أنتم ثرتم على مشايخكم وعلمت الناس الثورة عليهم . أنتم أيها الطلاب . أنتم مددتم أيديكم إلى مدرسيكم ، فجراتهم هؤلاء أن يمدوا أيديهم إلى أبي العيون . أنتم أطلقتم السنتكم فيهم فشقجتم هذه الصحف أن تغطاؤا حزية إلى الكلام على شيخ الأزهر . أنتم أيها الأزهريون جميعاً جعلتموها جامعة فكان فيها ما يكون في الجامعات ، وقد

كانت جامعاً لا يكون فيه إلا ما يكون في الجامع . لقد كان الأزهر لله فصار للناس ، وكان للآخرة ففندنا للدنيا ، وكان يجيئه الطالب يبتغي العلم وحده ، يتبلغ بخبز الجراية ، وينام على حصير الرواق ، ويقرأ على سراج الزيت ، ولكنه لا ينقطع عن الدرس والتحصيل من مطلع الفجر إلى ما بعد العشاء ، ينتقل من شيخ إلى شيخ ، في كل ساعة درس ، ولكل درس كتاب ، ولكل كتاب ساعة للتحضير والمراجعة ، لا يدع الدرس إلا للصلاة في المسجد صلاة خشوع وتبتل ، أو للأكل فيه أو كل قناعة وتقتشف ، أو لشرب المرقسوس أو الخرنوب . هذه ملذاتهم من دنياهم ، لا يخرجون من المسجد إلا عصر الخميس ، يؤمون الرياض والحياض ، للاستجمام والاستحمام ، لا يأملون من العلم مالا وقد كان أقصى مراتب الشيخ الأزهرى إلى عهد قريب ثلاثة جنيهاً في الشهر ، ولا يبلغها إلا نفر قليل ، فراضوا نفوسهم على القناعة ، وعودوها الصبر وأزموها الرضا . هذا الرضى يحدث عنه الأستاذ محمود حسن زناقي أنه كان في دار بالية في حي قديم وقد جلس على حصير أتق عليه كتبه وأوراقه ، ومن حوله خيط من عسل القصب مرشوش على البلاط يدرأ عنه هجوم البق^(١) لم يمنعه هذا الحصر الخلق في هذه الدار البالية من أن يشرح عليه الكامل . وأورثهم هذا الفقر عزة في نفوسهم : أورثهم كبر العلم ، وكل كبر مذموم إلا كبر العلم ، فلم يكونوا يحفلون أحداً من أبناء الدنيا ، لأنهم لم يتذوقوا لذتها حتى يداجوا فيها ، ولم يميلوا إليها حتى يتزلفوا إليها من أجلها . كسروا قيودها وتخلصوا من رقها ، وهانت عليهم وهان أهلها ، هذا هو اللورد كرومر ، وما أدراك ما اللورد كرومر ؟ ! يدخل على الشيخ محمد الانبأبي شيخ الأزهر ، ويسلم عليه ؛ فيرد الشيخ التحية وهو قاعد ، فيعظم اللورد قموده ويقعد إلى جنبه فيقول له متضجاً : « يا سيدنا الشيخ ألسنت تقوم للخديو ؟ » قال : « نعم » . قال : « فلم لم تمل لي ؟ » قال : « إن الخديو ولي الأمر وأما أنت فليست منا » . فيزيد ذلك اللورد إجلالاً له ، ويكتبه في أحد تقاريره لحكومته^(١) .

وهذا هو رياض باشا وكان رئيس الحكومة وناظر المالية

(١) من أخلاق العلماء .

(١) في كتابه الحابل (من أخلاق العلماء) .

الشيخ كأنما حَيَّته من فرحته بذلك اللائكة^(١) ، ولم يكفونوا بدعون للمدو ثرة يدخل منها إليهم ، ويجملون خلافهم إذا اختلفوا ، بينهم ، هذا هو الشيخ الأمير كانت بينه وبين الشيخ القويسني جفوة بلغت الحاكم ، وزاره الأمير فسأله عنها ، وأومح أن القويسني أخبره بها وكان يريد معرفة حقيقتها ليزيلها . فقال الشيخ الأمير : « ليس بيننا إلا الخير ، وما أظن الشيخ القويسني حدثك بشيء من هذا » وأثنى عليه ومدحه ونزل من عند الحاكم فربه على ما كان بينهما ، وأنباء بما كان ، فقال القويسني : « صدقت في ظنك ما قلت للحاكم شيئاً » قال الشيخ الأمير : « هكذا أهل العلم يسوون أمورهم بينهم ، أما مظاهرهم فيجب أن يكون قدوة في التآلف إمساكاً على عمرة الإسلام ، وحفظاً لكرامة العلم ، وزال بذلك ما كان بينهما^(٢) .

فيا إخواننا الأزهريين ، سالتكم بالله ، ارجعوا بالأزهر إلى سبيله التي درج عليها . أعيدوه سنته الأولى . أقيضوا عليه الدين والتقوى ، فالتقوى روح العلم ، فإن غارقه كان جسماً بلا روح . أحبوا فيه أخلاق الأسلاف . ليكن لكم تقام وزهدهم ، فتكون لكم عزتهم ومكانتهم . يا إخواننا ، لم يجد والله خيراً في الجامعة الأزهرية ، فردوا علينا الجامع الأزهر .

علي الطنطاوي

(١) من أخلاق العلماء .

في فلسطين :

صدر حديثاً :

كتاب

التطور الاجتماعي والاقتصادي في فلسطين العربية

تأليف محمد بنونس الحسني

يبعث في وصف بيت المقدس وفتح العرب للقدس ومهد

دول الإسلام والشئون الاجتماعية وطرق المراسلات . الخ

الناشر : مكتبة الطاهر إخوان بيافا الثمن ٣٠٠ ملا

يزور مدرسة دار المعلم ، وكان الشيخ حسن الطويل مدرساً فيها ، فلا يسلم الرئيس ويدخل ؟ حتى يتتدره الشيخ من آخر القاعة ، فيقول له : « يا باشا أما آن لكم أن تجملوني معكم ناظراً ؟ » . فيدهش الباشا ويقول : « ما هذا يا شيخ حسن ؟ » فيقول : « ما تسمع يا باشا ؟ » قال : « فأى نظارة تريد ؟ » قال : « المالية » قال : « لماذا ؟ » قال : « لأستبيح أموالها !^(١) » فذعر الباشا وخرج يرتجف ، وقال لمل مبارك باشا ناظر المعارف : « لا بد أن تخرج هذا الرجل من خدمة الحكومة » قال : « كيف ؟ وماذا أصنع مع علماء الأرض ، وهو عالم عالمي ؟^(٢) » . كذلك كانوا . زهدوا في الدنيا فجاءتهم الدنيا ، وأعرضوا عنها فأقبلت عليهم ، وهابوا الله فهابهم الناس ، فكيف حالكم اليوم يا إخواننا الأزهريين ؟

يا إخواننا ، إن هذا الأزهر الممور ، لبث خمسمائة سنة من عمره ، وهو منار العلم المفرد في الدنيا لولاه لتاهت في ظلمات الجهل ، وهو حارس الدين واللغة ، فأدركوه لا ينطق النار ، ويهجم الحارس ، وترك الدنيا للظلام وللصوص .

يا إخواننا ، ما عاش الأزهر ولا عز بالعلم وحده ، وما العلم بلا عمل ؟ ولكن عز بالتقوى والعمل وبالخلق التين . لقد كانت لعلماء الأزهر أخلاق لا أقول ضاعت ولكن اختفت عن الناس تلك الأخلاق ، كانوا يجيئون مشايخهم فيجلهم الناس كلهم . هذا هو الشيخ الباجوري شيخ الجامع كان يجلس بعد المغرب في الصحن فيقبل عليه العلماء والطلبة يقبلون يده ، وكان الشيخ مصطفى الباط وهو أكبر منه ، ناظره في طلب الشيخة ولم ينلها ، يندس فيهم ويقبل يد الشيخ ، فانتبه إليه مرة فأمسك به وبكى وقال : « حتى أنت يا شيخ مصطفى ؟ لا . لا » فقال الشيخ مصطفى : « نعم . وأنا ! لقد خصك الله بفضل وجب أن تقره ، وصرت شيخنا فعلمنا أن نوقرك^(٢) » ، وكانوا يقدمون العلم على المنصب ، ويعرفون لأجله حقهم . هذا هو الشيخ الشريف شيخ الجامع يجيء إلى الشيخ الأشعوني فيراء مضطجماً على جنبه فيضع حذاه بميداً ويقبل عليه على مشهد من أهل الجامع حتى يلثم يده . وكان الأشعوني ربما قال له : « إزيك يا عبد الرحمن ؟ » فيكون

(١) تمريناً بريافاً باشا . (٢) من أخلاق العلماء .